ويحاول «فكري» عبثاً أن يكتب، ولكن طائر الوحي لا يزوره، وأنى له بزيارته في هذا الجو المشحون بالاصطراب؟:

«درية : فلأحدثك عن نزول مصيبة على رأسي وحدي..

فكري : مصيبة!!.. شيء جميل.. حدثيني عنها بتأن.. وتفصيل.. وهدوء.. ووضوح.. من يدري.. ربما هبط علينا منها.

درية : «ثائرة» هبط عليك منها ماذا؟.. أهذا كل ما يهمك من الأمر؟.. تنقض علي أنا المصائب والمتاعب والهموم.. فتبادر أنت لا إلى حملها عني.. بل إلى نقلها ووضعها في هذا الورق.. هذا الورق الذي أكرهه.. وأمقته، وأود لو أمزقه وأحرقه.. أحرقه»[29].

تلك هي «درية» التي تمثل المرأة العادية التي نصادفها في حياتنا اليومية. فهل يمكننا أن نصادف «عنان» أيضاً؟ كلا، إننا نشك في وجود امرأة مثلها في العالم، لأن المرأة ـ عادة ـ تريد أن تتمتع بحياتها الخاصة، ولا ترضى أن تحرم منها مهما كان الأمر.

وإذا كانت هذه المرأة من صنع خيال الحكيم، فهل يستطيع أن يكتفي بها ويستغني عن المرأة الموجودة؟ الواقع أن الحكيم كان يتوق إلى أن يعيش مع المرأة في الحياة، لا في الخيال، ولو لوقت قصير، ولهذا نراه يتضرع إلى شيطان الفن أن يطلقه من أغلاله قليلاً ويسمح له بأن يحيا معها لحظة واحدة، إلا أن هذا الشيطان يأبى عليه في شدة بحجة «تفاهة» هذه المرأة الموجودة في الحياة، محذراً إياه أن يطمع في نعيم يحنيه منها، لأنها ستفقده السيادة على نفسه، وتحل الفوضى في حنته الهادئة الصافية. جنة الفكر والفن والتأمل والإبداع. وقد حثه شيطانه على أن يبقى دائماً مع شبح تلك المرأة المثالية التي تسكن خياله وأحلامه، والتي «ينبغي أن تكون امرأة لا ككل النساء؛ فهي النور بغير مصباح، وهي قطرات النشوة، وهي عروس لها جسم المرأة، وكل شيء جميل في المرأة، متدثرة في رداء من الخيال الذهبي»[30] ذلك الرداء الذي يحولها أن توحي إليه بحر ما يبدع.